إعجاز القرآن عند العلماء المغاربة
مالك بن نبي، وعبد الحميد بن باديس ـ أنموذجا ـ

بقلم
د. ميلود عمارة (*)

ملخص

مما اهتمّت به المدرسة المغاربية في دراستها لقضايا اللّغة والدراسات القرآنية؛ نظرية الإعجاز القرآني ومباحثه الخادمة له المشتركة مع علوم شتّى، كمبحث الإعجاز البياني والتحدي عند المفسّرين، ومبحث كلام الله ومصدرية القرآن عند علماء العقيدة، وغيرها وإن لم يكونوا سابقين إلى تأسيس معالم هذا الفنّ مقارنة بالعلماء المشارقة؛ فقد كان أثرهم في دراسة مسائل الإعجاز واضحا، وعنايتهم ببيان مفهومه ووجوهه ومتعلّقاته؛ بارزة، ومنه جاء هذا البحث يعالج فروع وخبايا هذا الموضوع، وتهدف إلى إبراز اهتمامات وعناية علماء الغرب الإسلامي بدراسة الإعجاز القرآني واستخلاص اختياراتهم، وما نخلته أيديهم من دلائل مصدرية القرآن وإعجازه البياني والتي من شأنها أن تضيف لبنة جديدة في تصوّر مسائل إعجاز القرآن، محاولا بذلك ربط الدارسين والباحثين في الدّراسات القرآنية بأعلام المدرسة المغاربية، وما أضافته إلى درس إعجاز القرآن.

الكلمات المفتاحية عناية؛ علماء؛ مغرب؛ درس؛ إعجاز؛ قرآن.

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم الحضارة الإسلامية ـ معهد العلوم الإسلامية ـ وعضو مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي ـ الجزائر
miloud-amara@univ-eloued.dz
تاريخ الإرسال: 2019/05/22 تاريخ القبول: 20 /2019/07

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه أستعين، والصّلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثمّ أمّا بعد:

فإنَّ أفضل ما اشتغل به المشتغلون من العلوم، ووجّهت إلى فهمه همم الدارسين؛ كتاب الله تعالى الذي أودعه الحكم والأسرار، تحدّى الله ﷻ النّاس جميعا أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ولهذا كانت العناية بالقرآن لدى المسلمين فضيلة وشرفا يترفّع به المخلصون لينهلوا من معيّنه العذب الذي لا ينضب، وذلك بتفحّص ألفاظه ومعانيه وفهم أسراره ومقاصده التي لا تنقضي، فلا غرابة في أن تتدافع في خدمته الأجيال على مرِّ العصور والأزمان.

وقد كان لعلماء المغرب الإسلامي حظّهم من هذه العناية في أشكالها المتنوعة، ومنها قضية "إعجاز القرآن" ودلائل مصدره الرباني، فصنّفوا فيه المصنفات التي تعكس ضبطهم، وتمكنهم من الخوض في قضاياه، وإتقان أدواته، ومعرفة وجوهه، ولا تزال آثار علماء الغرب الإسلامي في الإعجاز إلى اليوم شاهدة على تمسّكهم بالقرآن الكريم على أنه بجميع علومه؛ حجة الله على كافّة خلقه، وهي باقية ما بقي الزّمن.

وفي خضمّ هذا جاء هذا البحث موضّحا لهذه الفكرة باسطا الكلام فيها، محاولا تتبع أشكال العناية التي خصّها علماء المغرب بدرس الإعجاز القرآني، وقد عنونته: **الإعجاز القرآني عند العلماء المغاربة مالك بن نبي وعبد الحميد بن باديس – أنموذجا–**

۞ أهمية الدّراسة:

تتضّح أهمية هذه الدّراسة في الاطلاع على ما تزخر به الدراسات المغاربية في الإعجاز القرآني من نفائس وبدائع فريدة، أوصل إلينا علماؤنا بعضا منها غضّا رطيبا،

ولكن ظلّ بعضها حبيس المكتبات الخاصّة، ولربما أُهمل بعضها الآخر، وشقّ طريق الضّياع فلم يُكتب له الذُّيوع، لذلك تُحتّم الدّراسة إبراز هذا الموضوع.

❁ الهدف من الدّراسة:

يتوخّى الباحث جملة من الأهداف؛ منها:

أ- الإسهام في صرف اهتمام أمتنا المغاربية بحفظ تراثها العلمي.

ب- ربط الباحثين بأعلام المدرسة المغاربية والإشادة بجهودهم في مجال الإعجاز ومتعلّقاته كالبلاغة والنّقد والبيان، مما يثير في نفوسهم الهمّة للبحث والتحقيق.

ج- بيان اهتمامات وعناية علماء الغرب الإسلامي بدراسة الإعجاز القرآني، وتفحصّ مباحثه، وتعداد وجوهه.

❁ إشكالية البحث:

يجيب هذا البحث بجملته على إشكالات علمية تختزل مادة الموضوع، وهي الآتي:

- مَن هُم أبرز أعلام المدرسة المغاربية في درس الإعجاز القرآني؟

- ما هي أهمّ مباحث الإعجاز من خلال مصنّفاتهم؟ وما ملامح إضافاتهم فيها ؟

- فيم تجلّت عناية عالمي المغرب الأوسط: مالك بن نبي وعبد الحميد بن باديس؛ بقضية إعجاز القرآن.؟

❁ الدّراسات السّابقة:

من الدّراسات التي طرقت جزئيا هذا الموضوع أخصّ دراستين هما:

- جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري، حسن مسعود الطوير، طبعته الأولى في دار ابن قتيبة، بيروت، عدد صفحاته: 648 صفحة، فهذه الدّراسة متميّزة في موضوعها وشموليتها، لكنّها مقيّدة بأربعة قرون فقط: من الخامس إلى الثّامن هجري.

– الإعجاز في دراسات السّابقين، عبد الكريم الخطيب، عرض الباحث فيها أهم المؤلفين في مجال الإعجاز وآرائهم منذ النشأة، لكنها لم تفصّل الكلام على مؤلّفات المغاربة، ومذاهبهم، وإبداعاتهم في الإعجاز.

❁ منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث اتباع طريقة العرض والتحليل في المعالجة، فنهجت المنهج الوصفي والذي عرضت فيه أهم أعلام المدرسة المغاربية في الإعجاز، وكذا مباحث الإعجاز في مصنّفاتهم، ثم ذكر بعض إضافاتهم فيه، كما اعتمد المنهج التحليلي في مناقشة وتفسير بعض مباحث الإعجاز، وفكر أصحابها.

❁ خطة البحث:

جاء هذا البحث مكونا من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة مذيلة بالنتائج والتوصيات على التقسيم الآتي:

مقدّمة: وعرفت فيها بالموضوع، وأهميته، وبيّنت الإشكالية التي أردت الإجابة عنها، والدراسات المتعلقة بالموضوع.

المبحث الأول: من مؤلّفات علماء المغرب الإسلامي في إعجاز القرآن.

المطلب الأول: مباحث الإعجاز في كتب التفسير وعلوم القرآن

المطلب الثاني: مباحث الإعجاز في كتب العقائد والسّيرة النّبوية

المبحث الثاني: مباحث الإعجاز وآرائهم فيه من خلال مؤلّفاتهم

المطلب الأول: مباحث الإعجاز في كتب ومؤلّفات المغاربة.

المطلب الثاني: اجتهاد المغاربة في دراسة إعجاز القرآن.

المبحث الثالث: عناية مالك بن نبي وعبد الحميد بن باديس بدرس الإعجاز.

المطلب الأول: عناية مالك بن نبي بدرس الإعجاز.

المطلب الثاني: عناية عبد الحميد بن باديس بدرس الإعجاز.

خاتمة: تحوي نتائج البحث.

المبحث الأوّل

من مؤلّفات علماء المغرب الإسلامي في إعجاز القرآن

عرف مغربنا الإسلامي في مجال الدّراسات القرآنية عموما نشاطا مثمرا ومتميزا؛ درسا وتأليفا، وقد اضطلع بحمل هذه الرّسالة العلمية مجموعة طيّبة من علماء المغرب في مختلف أقطاره، فمنهم من اعتنى بدرس التفسير ومنهم بمباحث علوم القرآن، والقراءات، والنحو، والبيان، ويندرج ضمنا في ثنايا ذلك مبحث "الإعجاز القرآني" ومباحثه المتعلّقة به. -كما سيأتي التفصيل في هذا-

ومما اشتهرت به المغرب في عصر المرابطين وما بعده ظهور حركات فكرية متعدّدة من أبرزها حركة العلوم المتعلّقة بالدراسات القرآنية في كلّ من سبتة وفاس والتي صنّفت من أكثر الحركات تمثيلا للنشاط العلمي في المغرب إذ اتّسمت بتوافد كبار علماء المغرب والأندلس مُشكّلة بذلك مدوّنة معرفية في هذا المجال تدريسا وتأليفا.[1]

وإذا كانت معاني القرآن الكريم وتأويله هي المرمى الذي يسعى إلى بيانه كلّ من التفسير والإعجاز اللّغوي والبياني فلا بد لنا في هذه الوقفة أن نبرز ملامح التفسير عند المغاربة بإيجاز وبيان مذهبهم في التعامل معه.

فطريقة المغاربة عموما كما رصد علماؤنا هو الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم بخطه ورسمه غير مشتغلين بما سواه، على اعتبار أنّ القرآن الكريم رأس العلوم، وأصل التعليم.

يقول ابن خلدون: «فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرّسم ومسائله، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. »[2]

ولا غرو في تعظيم شأن أهل المغرب في العناية بالقرآن الكريم والاعتناء به في مجالات اجتهدوا في أحقيتها ودورها في توجيه ناشئتنا، لكن الذي يعنينا في هذا السّياق هو مدى عنايتهم بجانب الإعجاز في القرآن؛ وخاصة البياني الذي يعدّ أهمّ متعلّقات إعجاز القرآن.

مما لا ريب فيه أنّ علم البيان هو أساس لإدراك وتذوّق ملامح إعجاز القرآن، يقول ابن خلدون في مبحث البيان: « واعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ إنما هي في **فهم الإعجاز** من القرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختصّ بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشّيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللّسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه.»[3]

لكن الذي يلفت نظر الباحث في مجال الإعجاز خصوصا عند المغاربة هو شحّ التأليف، وقلّته سواء في إعجاز القرآن، أو الدّراسات البيانية في القرآن الكريم، وهذا مقارنة بتأليف العلماء المشارقة، فبِمَ يمكن تفسير هذه القلّة ؟

نقل المقري أنّ « المقصود بالتأليف سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء أُلّف ناقصا فيكمَّل، أو خطأ فيُصَحّح، أو مُشكل فيُشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجتمع، أو منثور فيرتّب.»[4]

يُفهم من هذا الكلام أنّ تجاوز هذه الأغراض ينقص من قيمة المؤلَّف، فالتأليف

إذا اقتصر على نقل ما الكتب السابقة لا فائدة من ورائه تجنى.

ومن عادات العلماء المغاربة ألا يصنّفوا تصنيفا لم تدعهم حاجتهم إلى تصنيفه، فهم مُقلُّون عموما لكنّهم مجيدون من حيث الإفادة العلمية، ولذلك تجدهم يحرصون على أن يأتوا في تواليفهم بما يميّزها عن غيرها من إضافات علمية وتنقيحات وتصويبات، وعرض الآراء ومناقشتها، وهذه تكاد تكون طبيعتهم منذ أن تشبعوا بالثقافة العربية الإسلامية، ولذلك فالعالم المغربي بصفة عامّة لا يخرج عن طوقه فإذا تعاطى للتأليف فهو أهل له، وإذا أحجم عنه فمعنى ذلك أنه لن يتكلّفه.(5)

وقد أنتج مغربنا الإسلامي أئمة أعلام أسهموا في بناء لبنات إضافية في صرح الإعجاز، كما أثنى على جهدهم ومؤلّفاتهم؛ كثير من العلماء الإسلام ونصحوا بالاعتناء بها، والرجوع إليها والاستفادة منها. وما وصلنا من دراسات هؤلاء الأعلام حول إعجاز القرآن على قلتها فهي تمتاز بالجدّية والتّحقيق، لا كما هو مشاع عن أكثرهم أنّهم يعتمدون النّقل المجرّد و التقليد.

والتساؤل المقصود من هذا المبحث هو: ما هي أهمّ المؤلفات التي قدمها علماء المغرب الإسلامي قديما وحديثا في مجال الإعجاز القرآني.؟ وفي أي مبحث تمحورت دراستهم؟ هذا التّساؤل هو ما ستجيب عنه الفروع المنضوية تحت المطلبين الآتيين.

المطلب الأول

مباحث الإعجاز في كتب التفسير وعلوم القرآن

سأتناول في هذا المبحث أهمّ المؤلفات التي صنّفها علماء المغرب الإسلامي في التفسير وعلوم القرآن ومتعلقاته وضمّنوها مباحث متعلّقة بإعجاز القرآن كمادة الإعجاز التي نظر لها المفسرون في مقدمات تفاسيرهم، وكذا المؤلفات التي تدخل في جانب من علوم القرآن كأساليب القرآن وبيانه.

الفرع الأول: مباحث الإعجاز في كتب ومقدّمات التفسير.

حوت مقدمات التفاسير مادة مهمة من قضايا الإعجاز القرآني، من هذه التفاسير:

1. « **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**»، لابن عطية (481هـ- 546هـ).

2. « **الجامع لأحكام القرآن**» للإمام القرطبي -رحمه الله- (ت 671هـ).

3. « **القرآن رسالة الله إلى جميع البشر**»، وهو من التفاسير المعاصرة غير التّامة قام بتأليفها: محمّد عبد السَّلام بن عبّود، وتضمّن مبحثين هامين، مبحث في التأويل، وآخر في إعجاز القرآن، وهو مطبوع في مطبعة الأطلس بالدّار البيضاء، المغرب، بلغت عدد صفحاته: 308 صفحة.

الفرع الثاني: مباحث الإعجاز في كتب علوم القرآن

1. لابن الحصّار[6] (364هـ- 422هـ) مقالة في "**إعجاز القرآن**"، لكن لم تصل إلينا، وقد نقل عنه القرطبي في أكثر من موضع في تفسيره[7] وخاصة في باب وجوه الإعجاز مما يوحي بثراء زاده، وقد نقل الإمام الذهبي قول "ابن حزم" في ذكاء ابن الحصّار؛ يقول: « ما لقيت أشدّ إنصافا في المناظرة من ابن بشر، ولقد كان من أعلم من لقيته بمذهب مالك مع قوتّه في علم اللّغة والنّحو، ودقّة فهمه.»[8]

2. « **نيل النّجاح والفلاح في علم ما به القرآن لاح**»، أرجوزة للسّلطان مولاي عبد الحفيظ العلوي 1356هـ طبعت بفاس 1324هـ، ضمنها إعجاز القرآن والبلاغة، بلغت عدد صفحاتها 106صفحة .

3. « **تعليقات على كتاب إعجاز القرآن للخطّابي**»، لمؤلفه: عبد الله بن الصّديق الغماري.

الفرع الثّالث: مباحث الإعجاز في كتب أساليب القرآن

من المؤلّفات المغاربية التي تسهم في بيان إعجاز القرآن ما تعلّق منها بالأساليب

القرآنية وضروب البيان وأفانين القول والمقارنة بين كلام الله تعالى وكلام البشر وهذا ما هو مدرّج عند المتخصّصين في مباحث إعجاز القرآن البياني، ومن هذه المؤلّفات نذكر:

1. «**بيان إعجاز القرآن**» و«**انتخاب الجرجاني**» مكّي بن أبي طالب: (355هـ-437هـ).

تجلّت عناية مكي بن أبي طالب بقضية إعجاز القرآن في تصنيفه كتابين هامين في هذا العلم أولهما: "بيان إعجاز القرآن" والذي يظهر من عنوانه أنه شرح فيه معنى الإعجاز وفحواه، وهو مفقود، والكتاب الآخر فهو المسمى: "انتخاب الجرجاني(ت 392هـ) في نظم القرآن وإصلاح غلطه" وهو مفقود أيضا، وقد صرّح الزركشي باسم كتاب مكي في كتابه: "البرهان في علوم القرآن" ونقل منه موضعا هاما في مبحث إعجاز القرآن نصّه: «قال ابن أبي طالب مكي في اختصاره نظم القرآن للجرجاني؛ قال المؤلف: أنزله بلسان عربي مبين بضروب من النّظم مختلفة على عادات العرب، ولكن الأعصار تتغير وتطول فيتغيّر النّظم عند المتأخرين لقصور أفهامهم، والنظر كلّه جار على لغة العرب، ولا يجوز أن ينزله على نظم ليس من لسانهم لأنّه لا يكون حجّة عليهم».[9]

كما كان مكيّ مهتّما بعلم التفسير؛ اهتماما بالغا حتى قال عنه ابن حزم: « أمّا القرآن فمن أجلّ ما صنّف في تفسيره كتاب "الهداية إلى بلوغ النهاية" في نحو عشرة أسفار، صنّفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكّي بن أبي طالب القرطبي.»[10]

ورغم أنه قد ألّف في إعجاز القرآن مصنّفات مستقلة فإنّه في تفسيره لم يتعرّض للحديث عن الإعجاز كما أنّ الأسرار البيانية والنّكات البلاغية لم تكن كثيرة بهذا التفسير، ومردّ ذلك إلى أنه خَصَّ ذلك بمصنّفات مستقلّة، فرغب عن التكرار، كما أنّ

علم البلاغة لم يتطور تطور العصور اللاحقة.[11]

2. «**ري الظمآن في متشابه القرآن**»، لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأندلسي (ت 634هـ)

3. «**التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات**» أحمد بن عبد الله بن عميرة؛ أبو المطرف[12] (580هـ- 658هـ)، قال عنه المقرّي: « وله كتاب ردّ به على كمال الدّين الأنصاري في كتابه المسمّى بالتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، وسمّاه بـ"التنبيهات على ما في البيان من التمويهات".»[13]

4. « **التنبيه على ما زخرف من التمويه في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**»، لابن عصفور الإشبيلي (ت 669هـ).

5. «**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**»، لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت 684هـ).

6. «**ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**»، لابن الزبير الغرناطي (708هـ).

المطلب الثاني
مباحث الإعجاز في كتب العقائد والسّيرة النبوية

سأتناول في هذا المبحث أهمّ المؤلفات التي صنفها علماء المغرب الإسلامي في العقائد وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وضمّنوها مباحث متعلّقة بإعجاز القرآن وجاءت مذكورة في كتب التوحيد والكلام، وكذا المؤلفات التي تدخل ضمن مباحث السيرة النبوية وتشترك مع إعجاز القرآن كباب المعجزات والبراهين الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيما يأتي بسط الكلام فيهما.

الفرع الأوّل: مباحث الإعجاز في كتب العقائد ودلائل النبوة:

1. «**الفصل في المِلل والأهواء والنحل**» أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

الظاهري[14] (384هـ- 456هـ).

ألّف ابن حزم كتابه المشهور: "الفصل في المِلل والأهواء والنِّحَل" وشكّله من خمسة أجزاء، أدرج في جزئه الثالث؛ باباً خاصّا بإعجاز القرآن، وبيان قضية الصرفة كوجه للإعجاز، وغيرها.

وعلى الرَّغم من القدرات العقلية التي كان يتمتّع بها ابن حزم وإحاطة معرفته بالعلوم الشرعية واللّسانية والأدبية فإنه لم يخرج عن حدود المذهب الظاهري، فهو يقرّ بموافقة العقل الصّريح للشّرع الصّحيح، بقوله: « وكلّ ما قاله الله تعالى فحق ليس منه شيء منافيا للمعقول. »[15]

ولا جرم أنّ هذا الاعتقاد في فهم النّصوص سينعكس على تصوّر مفهومه لمسائل الإعجاز، ومن المباحث التي اتضحت فيها مخالفة ابن حزم لجمهور العلماء هو مبحث مفهوم المعجزة وعلاقتها بالتحدي، فقد أسّس وفق منهجه الظاهري منهجا يتصور من خلاله أن الله تعالى سمى تلك المعجزات المطلوبة من الأنبياء عليهم السّلام آيات ولم يشترط عزّ وجلّ في ذلك تحدّيا من غيره فصحّ عنده أن اشتراط التحدي باطل محض، كان هناك تحدّ أو لم يكن.[16]

ولما أسّس عقيدته الظاهرية في فهم وجوه الإعجاز على أنه سبحانه تعالى لا يسأل عما يفعل بنى على ذلك عدة آراء نسبت له فولجها بعده منتقديه، منها: أنّ الإعجاز قائم على الصرفة فلا يقال لله تعالى لِمَ عجّزت بهذا النّظم دون غيره، ولِمَ أرسلت هذا الرّسول دون غيره.[17]

ومادامت الصّرفة والإعجاز البلاغي فكرتان لا يجتمعان فمن أقرّ بالأولى فسيتردد عن الثانية وهو ما وقع فيه ابن حزم أيضا، وما بني على الصّرفة أيضا هو تسويته بين

المعجزات الحسّية في الكتب السماوية الأخرى وبين معجزة القرآن المبنية عنده على الصّرفة.[18]

ولنا أن نتساءل هل وجه الصّرفة منذ بزوغه كان عائقا فعليا لمفهوم حقيقة الإعجاز؟

أقول بأنّ ذلك ليس عائقا لأنه لو تصورنا أن الله تعالى صرف الناس على الإتيان بمثله لا يستلزم أن بهذا الصرف انتفت دواعي المعارضة وزالت أسباب وجودها بعد قيامها، فيفهم منه إذا بأنه صرف قدري اقتضته مشيئة الله تعالى لاستطاعة الإنسان ولا يمكن أن عاقلا يتصور أن شيئا حدث فجأة عند نزول القرآن تعطّلت به علوما كانوا يتقنونها مدى حياتهم، وأساليب جرت في ألسنتهم مجرى الدم في عروقهم !

صحيح إذا اعتبرناه أوهن الأقوال وأضعفها، ولكن ليس صائبا أن يتوقّف فهم الإعجاز على انتفاء معناه وهذا على سبيل التقدير والتنزل مع القائلين بالصرفة، وليس على سبيل الصواب المقطوع به، وهو بعينه ما قصده شيخ الإسلام ابن تيمية حين ضرب مثالا يوضح هذا المعنى بقوله: إذا قُدّر أنّ هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله فامتناعهم جميعا عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات.. ولأنّ المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد.[19]

ولئن كان مسار شبهة الصّرفة التي ولدها المعتزلة يعدل عن مسار إعجاز القرآن البياني؛ فإنّ مقتضياته أثبتت أنه بذاته الزناد الذي به ينقدح الإعجاز البياني، ولأجله اشتد عوده واستوى، كيف ذلك؟

لأنّه لولا تثوير القول بالصرفة لما كتب في الإعجاز البياني الكمّ الذي كتب فيه، ولولا الخطأ لما عرف الصواب، ولولا اللّحن في القول لما عرفت السّلامة في الإعراب

والبلاغة وغيرها.

2. كتاب «**أعلام النّبوة**»، لأبي العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث الدلائي الأندلسي (ت478هـ) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون[20]، وأسماه الزركلي في الأَعلام[21]، والذهبي في السّيَر[22] بـ: «**دلائل النبوة**».

3. رجز على كتاب «**الإحكام في معجزات النبي – عليه الصّلاة والسلام–** » لأبي الحسن علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي (ت540هـ) ذكره أبو عبد الله محمد المراكشي في كتابه الذّيل والتّكملة، وقال: « ورَجَزَ الإحكام في معجزات النبي عليه الصّلاة والسّلام تأليف شيخنا أبي محمّد حسن بن القطان ترجيزا حسنا مستوعب الأغراض، وله منظومات كثيرة في مقاصد شتى ورسائل منوّعة. »[23]

4. كتاب «**المُقسِط في ذكر المعجزات وشروطِها**» لأبي بكر بن العربي (ت543هـ)، ذكره المؤلّف في كتابه أحكام القرآن. [24]

5. كتاب «**البشائر والأعلام لسياق ما لسيّدنا محمّد ﷺ من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات والأعلام**» لأبي الحسن علي بن محمّد بن القطّان الفاسي (ت548هـ). ذكره البغدادي في إيضاح المكنون[25] والنبهاني في كتابه: "حجّة الله على العالمين" قال: «قال الحافظ أبو علي الحسن بن علي بن عبد الملك الرهوني المعروف بابن القطّان في كتابه البشائر والإعلام لسياق ما لسيّدنا ومولانا محمّد المصطفى عليه أفضل الصّلاة والسّلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والأعلام: كان من أول ما ظهر من آياته صلّى الله عليه وسلم قبل البدء ما رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه –رضي الله عنهم– قال: قال رسول الله ﷺ: كنت نورا بين يديْ ربي عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام...»[26]

6. كتاب: «**معجزات الرّسول ﷺ**»، لعبد الحقّ الاشبيلي، المعروف بـ"ابن الخراط" (ت581هـ) ذكره ابن فرحون في الدّيباج المذهب حكاية عن محمد بن حسن

الأنصاري عن المؤلف، إملاء منه عليه قال: "في سِفر". [27]

الفرع الثاني: مباحث الإعجاز في كتب السّيرة النّبوية

1. «**شفاء الصّدور**»، أبو الربيع بن سبع السّبتي (ت 520هـ)

2. « **الشّفا بتعريف بحقوق المصطفى**»، القاضي عياض[28] (476هـ- 544هـ)

ويعد هذا المصنَّف الفذ مكسبا مهما للمكتبة المغربية والذي أوضح فيه وجوه الإعجاز القرآني، وذكر فيه فصلا في معنى المعجزات وبين فيه إعجاز النظم والأسلوب، وغيره، كما وضّح "القاضي عياض" المراد من الصّرفة في كتابة: "الشّفا" وأنها على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه فتعجيزهم عنه فعل لله دلّ على صدق نبيّه، كصرفهم عن تمنّي الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم.

وقد اعتنى المغاربة وكذا المشارقة بهذا المصدر ونوّهوا بشأنه وعكفوا على شرحه وتوضيح عباراته حيث بلغت عدد شروحه عند علماء المغرب العشرين مصنّفا أو أكثر، أمّا الشروح التي حظيت بشرحه في المشرق فبلغت الخمسين مصنفا أو يزيد، ولعل أول شرح يعود إلى القرن السّابع الهجري وهو شرح علي بن أحمد الحرالي التجيبي (ت637هـ).

المبحث الثاني

أهمّ مباحث الإعجاز وآرائهم فيه من خلال مؤلّفاتهم

المطلب الأول: أهمّ مباحث الإعجاز في كتب ومؤلّفات المغاربة.

الفرع الأوّل: مبحث وجوه الإعجاز:

مما اهتم بتوضيحه علماء المغرب مبحث وجوه الإعجاز كالإعجاز البلاغي والغيبي، والعلمي، والتشريعي، والنفسي، وغيرها، وأهمّ مبحث اعتنوا به هو المبحث البياني، يقول المراكشي: « الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكير في علم البيان، وهو

ما يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى وعن تعقيده ويعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال.. لأنّ جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظ وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها وإلا لكان كلّ تأليف معجزا ولا إعرابها وإلا لكان كلّ كلام معرب معجزا، ولا مجرّد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشّعر معجزا... ولكان هذيان مسيلمة معجزا، ولأنّ الإعجاز يوجد دونه أي الأسلوب في نحو: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾[يوسف: 80] ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: 94] »[29]

الفرع الثاني: مبحث التحدي:

رجح ابن عطية من العلماء المغاربة أنّ التحدي وقع بالنظم، وضعّف الرأي القائل بأنّ الإعجاز كامن في إخباره بالغيبيات، يقول: «وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب ردا على قولهم "افْتَرَاهُ" وما وقع التحدي في الآيتين هذه وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما ألزموا قط إتيانا بغيب، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب كقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3]، وكقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: 27] ونحو ذلك من غيوب القرآن فبين أن البشر مقصر عن ذلك.»[30]

الفرع الثالث: مبحث الصَّرفة:

عارض كثير من العلماء المغاربة مذهب الصَّرفة كوجه لإعجاز القرآن الذي اشتهر بتقريره النظام ونقل عن الجاحظ وهو مذهب كثير من المعتزلة، وقد تصدى ابن عطية للرد على هذه الفكرة مشيرا إلى مسألة إحاطة الله تعالى بالأشياء، والبشر معهم الجهل والقصور، يقول: « فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النّظر يبطل قول من قال إنّ العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلمّا جاء محمّد ﷺ صُرفوا عن ذلك وعَجزوا عنه. »[31]

أما القاضي عياض فمعروف عنه أنّه كان يهتدي بآراء أهل السُّنة، ومع ذلك فقد ضلَّله عنصر النقل والاقتباس؛ فوقع في المحظور حين لم يفهم ما ذكره المعتزلة من القول بالصَّرفة؛ فنراه يذكر ما ذهب إليه أبو الحسن الرماني المعتزلي؛ من أن القرآن ممّا يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم عليه ولكنّه لم يكن هذا.. فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه. (32)

المطلب الثاني
اجتهاد المغاربة في دراسة إعجاز القرآن

مما هو مشاع في أوساط الباحثين في إعجاز القرآن أنّ علماء المغرب والأندلس كانوا يتلقون أفكارهم ويرقبون علومهم من المشارقة، وعليها يرصدون أقوالهم ويبنون آرائهم ، وإضافة إلى هذا كلّه أنّ آرائهم لا تحوي جديدا ، ولا تحلّل قولا ، ولا تنقد فكرة، وغير ذلك مما لهم باع في إنتاجه.

ألا يزيد هذا الخبر المشاع في شوقك إلى معرفة جهودهم حين تسمع بهذا؟ ألا تتوق نفسك إلى بيان عنايتهم حين تقرأ لابن خلدون وهو يقول عن البيان: « وبالجملة فالمشارقة على هذا الفنّ أقوم من المغاربة... وإنما اختصّ بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصّة... وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقّة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما.»(33)

لكن فكرة هذا البحث تفنّد هذا الاعتقاد في مجال إعجاز القرآن بدليل مؤلّفاتهم المتنوّعة وكتبهم المصنّفة لبيان مسألة الإعجاز، ومباحثه المتعلقة به، وما تضمنته من معالجة لقضاياه واهتمام يتجلى لك حين تجد الإعجاز حاضرا في كلّ علم من العلوم التي كتبوا فيها، كعلم العقائد وعلوم القرآن والتفسير والسّير وغيرها.

ومن المقاصد التي لأجلها عقد هذا المطلب هو توضيح مكامن التحقيق والتوثيق وكشف رموز الإشارات التي احتوت شيئا من الجدّة والابتكار.

نوّه بعض العلماء بجهود ابن عطية في الإعجاز وأنه محقّق ومدقّق في المسائل التي سبقه العلماء في الكلام عنها والتنظير لها، ومن هذا ما جاء في بيان وجه الإعجاز، يقول ابن عطية: «ووجه إعجازه أن الله تعالى **قد أحاط بكل شيء علما** وأحاط بالكلام كله علما فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنّسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أنّ بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.»(34)

فهذا النّص الذي يكشف لنا عن رأي ابن عطية في تفسير فحوى الإعجاز ومناطه ومعدنه؛ يعدّ من الأفكار الجديدة التي احتوت كلّ وجوه الإعجاز المختلفة، وللإشارة إلى أن الدكتور عبد الكريم الخطيب ذكر أنّ الرافعي قد استفاد من هذه الفكرة وانتفع بها انتفاعا عظيما في استطلاعاته حول إعجاز القرآن.

فإحاطة الله بكلّ شيء علما وإحاطته بجميع الألفاظ التي تجري على ألسنة أرباب اللّغة هي التي أعطت القرآن الكريم هذا الرّصف البديع والنظم المعجز فوضعت اللّفظ المناسب للمعنى المناسب بتناسب وتناسق وإحكام فوق عقول العالمين، أمّا العلم البشري فمحدود يقصر عن أن ينفذ إلى أعماق الأمور كلّها، ويتناولها جميعها من أطرافها، ومجال نفوسهم أضيق من أن يتسع لأكثر من حال واحدة تتلبس به في زمن ما.(35)

ومن مظاهر الجدّة والابتكار في مسائل البلاغة والإعجاز:

ما خطّته أنامل العلماء، فكانت لهم لمسة وإضافة في البلاغة القرآنية وإعجاز

القرآن، أعني: العلامة محمّد بن عبد السلام السّائح الأندلسي الرباطي المتوفّى سنة (ت1367هـ).

كان العلامة السّائح – رحمه الله– «لا يقف في تقاريره العلمية موقف الحاكي يجلب نصوص الكتاب والمفسرين ويعرضها جافا دون أن يكون له حظ الأخذ والردّ، بل والتوليد والابتكار في غير ما فن.»[36]

ويشيد المرحوم الجراري بنادرة من نوادره في البلاغة القرآنية ومن فرط عنايته بمسائل الإعجاز اللّغوي البياني في القرآن الكريم أنه اهتدى إلى ملاحظة لطيفة في نسق النّص القرآني مفادها أن من أنواع الأساليب اللفظية المتعددة في باب فواصل الآي المقفاة فواصل أخرى مغايرة للفواصل التي بُنيت عليها السّورة، وهو نوع على نهجه بُنِيَ التوشيح وعلى وتيرته ارتكز أسلوبه قال: «لم أجده منصوصا لغيري، وإنما وقفت إليه.»[37]

المبحث الثالث

عناية مالك بن نبيّ ، وعبد الحميد بن باديس بدرس الإعجاز

المطلب الأول: عناية مالك بن نبيّ[38] بدرس إعجاز القرآن

ألّف مالك بن نبي كتابه الفذّ "الظاهرة القرآنية"، صدرت طبعته الأولى بالفرنسية عام 1946م، ترجمة: عبد الصبور شاهين، وصدرت الطبعة الأولى بالعربية عام 1958م. وأدرج فيه مفاهيم جليلة القدر تتعلق بمفهوم الإعجاز والحديث عن وجوهه التي تليق بالمثقف المعاصر، وعلى قدر معطيات دهره، وفيما سيأتي سأبين مفهوم إعجاز القرآن عند مالك بن نبي، ثم أشرح المنهج الجديد الذي أصّل له مالك وهو منهج التحليل النّفسي.

الفرع الأوّل: مفهوم الإعجاز عند مالك بن نبيّ

بنى مالك بن نبي فهمه لنظرية الإعجاز على غير اتّباع لخطى سابقيه الذين نظّروا للإعجاز وقضاياه الخطابي والباقلاني ومن بعدهم، فمما اشتهر عند علماء الإعجاز قبل ابن نبي تعريف المعجزة: على أنها "الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدّي، السّالم من المعارضة"، وأنّ الإعجاز يكمن في سرّ البلاغة، وجودة النّظم الخارجة عن طوق البشر.

لكن مالكا سلك في فكرة المعجزة نهجا آخر، حيث انطلق في فهمه للإعجاز من قضيتين أو اعتبارين بنى عليهما فكره في كتابه الظاهرة القرآنية:

– **أولاهما**: أنّ الإعجاز غير متوقف على زمن أي أن الإعجاز صفة ملازمة له عبر العصور والأزمان.

– **والأخرى**: يجب أن يكون الإعجاز في مستوى إدراك الجميع، لأنّه حجّة للناس جميعا، ويزول المقصد وتتعطل المصلحة لو كان الإعجاز فوق عقول العالمين.

واعتبر مالك أنّ الإعجاز بالمعنى الشائع يخالف الاعتبارين المذكورين، والثاني خاصة، إذ نشاهد اليوم تطورا كبيرا على صعيد الأذواق والاتجاهات، فالمسلم في عصرنا فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانات عالم اللغة في العصر العباسي (الجاحظ وغيره) فيتعطّل حينها الذوق البياني، لذلك ينبغي أن يجعل وجه الإعجاز أمرا غير هذا.

إذن كيف يمكن لنا أن نفسّر القرآن على خطى أسلافنا ونحن نفتقر إلى أهمّ وأعظم أداة كانت طيّعة بالنسبة إليهم؟

مضمون هذا السّؤال حرّك روح الإبداع والاجتهاد لإيجاد مفهوم جديد للإعجاز يتناسب ومقتضيات العصر يقول مالك ابن نبي: « والحقّ أنه لا يوجد مسلم وخاصّة في البلاد غير العربية، يمكنه أن يوازن موضوعياً بين آية قرآنية، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من موازنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة، ومنذ وقت طويل أيضاً تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتّفق وعقول المتعلقين بالموضوعية. فمشكلة التفسير توضع إذن في ضوء جديد.»(39)

وهذا ما دعاه إلى أن يعدّل في مفهوم الإعجاز بأن يوسّعه حتى يشمل **كلّ حجّة ودليل يقدّمه القرآن ويعجز عنه البشر.** (40)

الفرع الثاني: منهج التحليل النّفسي لدراسة القرآن.

أخرج مالك بن نبي كتابه "الظاهرة القرآنية" لدراسة وتوضيح نوع إعجاز القرآن، وهو بذلك قد وضع المهاد القاعدي لضرورة فهم القرآن باعتباره نصّا أسس للثّقافة الجديدة وشكّل للمسلمين أضخم عماد لحضارتهم وهويتهم، لذلك اقترح منهجا جديدا رآه حقيقا بتصور المقصد من إعادة تنزيل القرآن في الواقع، بحسب متغيّرات حاضر العالم الإسلامي فقال: «وإنما أصبح المسلم مضطراً إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النّفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل الباطن.»(41)

وتجدر الإشارة إلى أنّ السّبب الرئيس في تأليف كتابه "الظاهرة القرآنية" وهو السّؤال الذي أجاب عنه الكتاب، ومؤدّاه: "كيف يدرك المثقّف المعاصر أنّ هذا القرآن معجز"؟ فإذا كانت العرب قديما على السليقة اللغوية والبلاغية فإنّ تحدّيها من جهة ذوقها الفطري هو أقوم للحجّة وأبطل للشّبهة، وإذا كان العهد الأموي

والعباسي اتّسم بالنّهضة العلمية[42] فإنّ إعجاز القرآن يتضح لهم من جهة العلم، أما الصّورة التي تتناسب في عصرنا هذا الذي فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانيات عالم اللّغة في العصر العباسي؛ هي أن نتناول الآية القرآنية من جهة تركيبها النّفسي والموضوعي أكثر مما يتناولها من ناحية بنائها اللّفظي وأسلوبها البلاغي.

إنّ الفائدة التي تحوي الطُرفة والجدّة التي يمكننا أن نستشفها من كتاب "الظاهرة القرآنية"، هي إصرار مالك بن نبي على استمرارية الإعجاز، وأنّ زمن التحدي قائم ما بقي الإنسان، وفي هذا أفادنا مالك بأن آيات التحدي الثلاث التي ساقها القرآن للتحدّي « لم يَسقها القرآن لتنشئ الحجّة، وإنما جاءت إعلاناً هنا وإشهاراً لوجودها في سائر القرآن. كي تؤتي تأثيرها في العقول المتربصة، وتنتج أثرها في القلوب التي لا زالت في أكنتها.»[43]

المطلب الثاني

عناية عبد الحميد بن باديس[44] بدرس إعجاز القرآن

الفرع الأوّل: مفهوم المعجزة عند ابن باديس.

لم يذكر ابن باديس رأيه في تعريف المعجزة تصريحا لكن ورد له قول ضمن مبحث معجزات الرّسل، عقده في كتابة "العقائد الإسلامية" يفهم منه بيان المعجزة وشروطها، يقول: « لما أرسل الله الرسل لهداية خلقه وإقامة حجته، أيدهم بالبينات، وهي كل ما تبين به الحق، من كمال سيرتهم في قومهم، ووضوح بيانهم. وقوة حجتهم، وأيدهم بالآيات المعجزات الخارقة للعادة، المعجوز عن معارضتها، فكانوا يدْعون الخلق بالحُجج والبراهين...»[45]

نستشفّ من هذا أنّ مفهومه للمعجزة لا يختلف كثيرا عن تعريف السابقين على أنها أمر خارق للعادة سالم من المعارضة، يجريها الله تعالى على أيدي أنبيائه تأييدا لهم.

ويستمرّ ابن باديس في توضيح علّة اقتران الأنبياء بالمعجزات والغرض منه، بقوله: «...فإذا سألوهم آية ردوا الأمر إلى الله، وتبرأوا من أن يكون لهم معه تصرّف في الكون حتى يأتوا بالآيات، فيعطيهم الله الآيات تأييدا لهم، وتخويفا لقومهم، فيخضع قوم فيؤمنون، ويستمر الأكثرون على العناد، فتحق عليهم كلمة العذاب.»(46)

فالغرض من المعجزة عند ابن باديس تأييد الله تعالى لأنبيائه، وتخويفه تعالى للمعاندين، ولا دخل للأنبياء في وجودها من عدمه فهي من عند الله، ومتعلقة بمشيئته وحده سبحانه وتعالى.

الفرع الثاني: وجوه الإعجاز عند ابن باديس.

اهتمّ ابن باديس بمباحث الإعجاز شارحا لها ومبيّنا دلائل مصدرية القرآن، وهذا في كلّ موضع مناسب من تفسيره القيّم "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، والمتفحّص له ولآرائه فيه يجد أنه فَهِم الإعجاز فهما شموليّا، حيث اختار ابن باديس في مسألة وجوه الإعجاز(47) عند العلماء النّظرة الشمولية، ولم يقتصر على وجه معيّن فيه، فقد وضح في تفسيره: مجالس التذكير" أنّ الإعجاز البلاغي والوجوه البيانية للقرآن هي الأصل الذي تحدى الله تعالى به العرب، ثمّ اتّسع وجه الإعجاز ليشمل جميع العلوم والمعارف المبثوثة في القرآن التي تـدلّ قطعا على مصـدره الرباني ، وأنّه مباين لكلام البشر .

وقد جاء الإعجاز في مفهوم ابن باديس على ناحيتين: بيانية وعلمية؛ والأخيرة عنده هي الأعمّ والأبقى في هذا الزّمان، يقول: « القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا- وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم- أنّه ليس مثله من طوق البشر. هذه هي النّاحية الظّاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له، ولمن أتي به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعمّ: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كلّ ذي فهم من جميع الأمم، في كلّ قطر وفي كل زمن، وهذه النّاحية هي التي احتج بها في هذا الموطن.

فقد استدلَّ على أنّ القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمّد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك:

– ما أنبأ به من **أسرار الأمم الخالية**، وبيّن من أسرار الكُتب الماضية.

– وما أنبأ من **أحداث مستقبلة**، وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة كالزّوجية في كلّ شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشّمس إلى مستقرّ مجهول معيّن عند الله لها.

– وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق. »(48)

فالنّظرة الشّمولية تتمثل في الانفتاح على العلوم المنبعثة من القرآن وعدم الاقتصار على البلاغة وإن كانت هي أصل التحدي، لذلك فإنّ ابن باديس يوضّح مفهومه لإعجاز القرآن بأن الكتاب الذي ينطوي على مجمع العلوم وأسرار الكون قاطبة قديمها وحديثها هو الكتاب المعجز الذي يمتنع ويتعذر على البشر الإتيان به.

ومن هذه الفكرة اقتنع ابن باديس بأنّ تشريع القرآن، والعلم الذي أخبر به القرآن، والغيب الذي قرّره القرآن، وأسرار العمران والاجتماع وغيرها كلّ هذا حقيق أن يوصف بالإعجاز، وكلّ ما نطَّلِع على هذه بعض تلك الأسرار؛ فإننا نزداد علما عرفانا، ونزيد الدّين حجّة وبرهانا.

وهذا النّص يوحي بتأثّر ابن باديس بفكرة الإعجاز العلمي في القرآن بما يتوافق مع المفاهيم المعاصرة، وعلى حسب العلوم المواكبة لكلّ عصر، ولعلّه تأثّر في هذا بشيخه الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور التونسي.

وقد اتخذت عناية ابن باديس بإعجاز القرآن أشكالا عدّة، منها ما ضمنه تفسيره القيّم: "مجالس التذكير" من استنباطات عامة يستلهم منها دلائل الإعجاز على اختلاف وجوهه وأنماطه، وبراهين مصدرية القرآن وأنه من عند الواحد الدّيان.

ومن الأوجه التي اعتنى بإبرازها:

الوجه البلاغي وناحيته جودة النظم، وبراعة الأسلوب، ومنها راح يستخرج أسرار البلاغة في كل موضع يناسب المقام ليدلل على أن هذا النظم لا يقدر عليه من هم أقدر الناس على البيان، فضلا على من هم دونهم.

ومن ملامح عنايته بهذا الوجه وهو الرّجل المقتدر على مآخذ القول وتذوّق البيان؛ أنه يستعمل مصطلحات دقيقة في التعبير ومدركة للوصف المراد، من ذلك: مصطلح التصوير، والإبداع، والاتّساع، والسّبك، وغيرها مما يوحي بحسّه البلاغي الراقي. ونسوق هنا نصًّا عقّب به على تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ: 19].

يقول: « ليس المقام مقام تبسّط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات، فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطواراً اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها: كقوله ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، وكقوله:

﴿**وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ**﴾، وكقوله: ﴿**بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾. حتى إذا وصل القارئ إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**﴾ وأدركه الغرق في لُجج البلاغة الزاخرة.» (49)

ومن وجوه الإعجاز التي انتصر لإثباتها ابن باديس: **الوجه العلمي،** أو ما يعرف بالإعجاز العلمي، ويفيدنا ابن باديس بفكرة عجيبة وهي أنّ الكون ومكوّناته، وجرَيانه وتعاقب الدّهور والأزمان من المصادر التي تكشف عن حقائق النصوص الشّرعية، بل إنّ غرائبه لا تتّضح إلا بمرور الزّمن، وهذا من دلائل إعجازه التي وضّحها الإمام في غير موضع من كتابه. يقول ابن باديس -رحمه الله-: « القرآن **كتاب الدّهر** ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلاّ الزمن وكذلك كلام نبيّنا- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- المبين له، فكثير من متون الكتاب والّسنة الواردة في معضلات الكون، ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلاّ بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدّقها من سنن الله في الكون، وكم فسَّرت لنا حوادث الزّمن **واكتشافات العلم** من غرائب آيات القرآن، ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخّرين ما لم يظهر للمتقدّمين، وأرتنا مصداق قوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- في وصف القرآن: «لا تنقضي عجائبه»، والعلماء القوّامون على كتاب الله وسنّة رسوله لا يتلقّونها بالفكر الخامد، والفهم الجامد إنما يترقّبون من سنن الله في الكون، وتدبيره في الاجتماع؛ ما يكشف لهم عن حقائقها، ويَكِلُون إلى الزّمن وأطواره تفسير ما عَجَزت عنه أفهامهم.

وقد أُثر عن جماعة من فقهاء الصّحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: "لم يَأتِ مصداقها أو تأويلها بعدُ" يعنون أنّه آت، وأنّ الآتي به حوادث الزّمان، ووقائع الأكوان، وكلّ عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه.»(50)

فمن يتمعّن في فكر ابن باديس من خلال مؤلّفاته يجد أنّه يحمل للأمة الإسلامية

والمغاربية خاصّة فكرا إصلاحيا عمليا يتناسب وعصرهم، ويتوافق مع أفهامهم عبر أزمنتهم ومنه نظرية الإعجاز وذلك بربطها بالواقع وتطوّر الحضارات والعمران، مما يوحي بعمق تفكيره في مجال الإعجاز.

وأخيرا ومن خلال عرضنا لأهمّ أعلام ومؤلّفات المغرب الإسلامي في الإعجاز القرآني؛ تبيّن مدى عنايتهم بمباحث الإعجاز، ووجوهه ومعناه؛ هذه العناية اتخذت أشكالا متنوّعة منهم من تناولها من جهة الاعتقاد ومنهم من فسّرها في تقرير النّبوة والرّسالة، ومنهم من عالجها في تأريخ السّيرة النبوية وعلى الرّغم من قلّة التصنيف في شأن الإعجاز مقارنة بالمشارقة، فإنّه لا يعني قلّة اهتمامهم وضعف عنايتهم، بل إنّ توفر البيئة الثقافية والعلمية والاجتماعية للخوض في باب الإعجاز ومباحثه في المشرق كان أكثر من توفّره في المغرب خاصّة كثرة المذاهب والصّراعات العقدية التي خلقت مناخا لإثارة قضايا، كان للإعجاز نصيبه منها.

ونشير أيضا إلى أن التأثّر بأفكار وآراء العلماء السابقين في باب الإعجاز مع التحليل والنّقد والتفسير لا يعدّ تبعية فكرية فالإعجاز كعلم هو سلسة من المفاهيم المتلاحقة آخذ بعضها برقاب بعض قد يضيف فيها المتأخّر إلى علم المتقدّم أشياء وقد ويبطل أخرى، لذلك فعلماؤنا المغاربة نلتمس إضافاتهم واهتماماتهم وكيف استثمروا جهود من قبلهم، أما التأصيل والابتكار فلا يكاد ينحصر في زمن بذاته أو في إمام بعينه.

خاتمة

من خلال هذا البحث الموسوم: « **الإعجاز القرآني عند العلماء المغاربة، مالك بن نبي وعبد الحميد بن باديس –انموذجا–** » ظهرت لنا جملة من النتائج توضح العناية التي أولاها علماء الغرب الإسلامي لدراسة إعجاز القرآن، أذكر منها:

1– كشف البحث عن معالم جهود علماء المغرب الإسلامي قديما وحديثا في تناول

قضية إعجاز القرآن تأليفا وفهما وتحقيقا. وبين البحث ملامح عنايتهم في إبراز وجوهه، وآرائهم فيه.

2- فَهِمَ مالك ابن نبي الإعجاز على أنّه صفة ملازمة للقرآن عبر العصور، وينبغي فهمه أيضا على أنّه في مستوى إدراك جميع الناس، لأنّ اعتباره فوق عقولهم، يُفقِد وسائل فهمه. كما ابتكر مالك منهجا جديدا في دراسة التفسير هو أن تتناول الآية من جهة تركيبها النّفسي الموضوعي أو ما يسمّى بـ"المنهج النّفسي".

3- اعتنى عبد الحميد بن باديس من خلال تفسيره " مجالس التذكير" بإعجاز القرآن عناية كبيرة، إذ بيّن معظم وجوه الإعجاز مركزا على الوجه البلاغي غير مهمل للوجوه الأخرى متمثلا في كلّ هذا؛ آرائه الشمولية في فهم المعجزة والإعجاز.

– وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمّد، وعلى آله صحبة أجمعين –

ـ قائمة المصادر والمراجع:

1. **القرآن الكريم** برواية حفص عن عاصم.
2. «**الإتقان في علوم القرآن**»، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ- 1974م.
3. «**أحكام القرآن**»، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ - 2003م.
4. «**الإعجاز في دراسات السّابقين**»، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط1، 1974م.
5. «**الأعلام**؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.
6. «**البرهان في علوم القرآن**»، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1 1376هـ -1957م.
7. «**ترتيب المدارك وتقريب المسالك**»، القاضي عياض، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المغرب ط1، 1981م.

8.«**الجامع لأحكام القرآن**»، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ط2، 1384هـ- 1964م .

9.«**جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز**، حسن مسعود الطوير، دار قتيبة، بيروت ط1، 1430هـ - 2001م.

10.«**الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**»، ابن فرحون المالكي، دار التراث، القاهرة، دط.

11.«**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»، ابن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت

12.«**السّفر الخامس من كتاب الذّيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة**»، ت: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط1، 1965م.

13.«**سير أعلام النبلاء**»، شمس الدين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ- 2006م.

14.«**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**»، القاضي عياض، دار الفيحاء، عمان، ط2، 1407هـ.

15.«**الظاهرة القرآنية**»، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ - 2000م.

16.«**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**»، ابن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1416هـ- 1995م.

17.«**المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**»، ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1413هـ- 1993م.

18.«**معجم أعلام الجزائر**»، عادل نويهض، مؤسّسة نويهض للطباعة، بيروت، ط2، 1400هـ- 1980م.

19.«**مقدّمة ابن خلدون**»، ابن خلدون، المطبعة الشّرفية، دت.

20.«**من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين؛ الرّباط وسلا**»، عبد الله الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، ط1 1391هـ- 1971م.

21.«**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**»، أحمد المقرّي التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط1، 1997م.

ـ الحواشي والإحالات

(1) . ينظر: الدراسات القرآنية بالمغرب، إبراهيم الوافي، مطبعة النّجاح، الدّار البيضاء، 1420هـ-1999م، ص220.

(2). مقدمة ابن خلدون، ص630.

(3). المصدر نفسه، ص646.

(4). أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقرّي التلمساني، ت: مصطفى السّقا، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1358هـ-1939م، ج3، ص35.

(5). ينظر: الدّراسات القرآنية بالمغرب، إبراهيم الوافي، ص115-116.

(6). عبدالرحمن بن أحمد بن سعيد ، أبو المطرِّف ، القرطبي المالكي ، تفقه بأبي عمر الإشبيلي ، توفي سنة 422هـ، ينظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج13، ص166.

(7). ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص73 ص102 ص104.

(8). سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج13، ص166.

(9). ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص92.

(10) . نفح الطيب، أحمد المقري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، ج3، ص179.

(11). ينظر: جهود علماء الغرب الإسلامي في الإعجاز، الطوير، ص86.

(12). أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين ابن عميرة المخزومي، أبو المطِّرف: أديب، من أجلاء المغرب ومن فحول كتابه. ولد في شقورة، أو أصله منها ومولده ومنشأه في بلنسية (بالأندلس) وانتقل إلى غرناطة ومات في تونس سنة 656هـ .ينظر ترجمته في: الأعلام، ج1، ص159.

(13). نفح الطيب، ج1، ص314.

(14). أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم " الحزْمية ". ولد بقرطبة سنة: 384هـ ، جاء عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخطه أبيه من تآليفه نحو 400 مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. أشهر مصنفاته " الفصل في الملل والأهواء والنحل " وله " المحلى" في 11 جزءا و" جمهرة الأنساب". ينظر: الأعلام ج4، ص254.

(15). ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج2، ص98.

(16). ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص6.

(17). ينظر: نفسه، ج3، ص11.

(18). ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ج5، ص4.

(19). ينظر: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ت: علي بن حسن، دار العاصمة، السعودية، ط2، 1419هـ- 1999م، ج5، ص429.

(20). ينظر: إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج3، ص104.

(21). ينظر: الأعلام، ج1، ص185.

(22). ينظر: سير أعلام النبلاء، ج14، ص71.

(23). ينظر: السّفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1965م ج1، ص288.

(24). ينظر: أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ-2003م، ج1، ص40.

(25). ينظر: إيضاح المكنون، ج3، ص183.

(26) . حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص162.

(27). ينظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج2، ص61.

(28) . عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ولي قضاء سبتة، ثم غرناطة. وتوفي بمراكش سنة546هـ، من مصنفاته: تصانيفه " الشّفا بتعريف حقوق المصطفى" و " الغنية" و" ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك" ينظر: الديباج المُذهب، ج2، ص46.

(29). الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص10-11.

(30). المحرر الوجيز، ج3، ص120.

(31). المصدر نفسه، ج1، ص49.

(32) . القاضي عياض ومفهومه للإعجاز القرآني، أحمد العمري، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1397هـ - 1977م، ص26.

(33). مقدّمة ابن خلدون، ص357.

(34). المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ- 1993م، ج1، ص 49.

(35). ينظر: إعجاز القرآن في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص323.

(36). من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، عبد الله الجراري، ج2، ص147.

(37). من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، ج2، ص147.

(38) . هو مالك بن نبي، عالم ومفكّر إسلامي، ولد بمينة قسنطينة 1323هـ الموافق 1973م، درس الهندسة في المعهد العالي للهندسة بباريس تولى إدارة التعليم العالي سنة 1964م، بوزارة الثقافة كان عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة توفي رحمه الله 1393هـ، من آثاره: "الظاهرة القرآنية" و"مشكلات الثقافة" و"شروط النهضة" و "وجهة العالم الاسلامي"، وغيرها، ينظر ترجمته في: **معجم أعلام الجزائر**، عادل نويهض مؤسسة نويهض للطباعة، بيروت، ط2، 1400هـ- 1980م، ص282.

(39). الظاهرة القرآنية، ص57-58.

(40) . ينظر: إعجاز القرآن من خلال الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، عبد الرحمن تركي، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، العدد الأول ص11.

(41). الظاهرة القرآنية، ص67.

(42) . نشير إلى أن استعمال مصطلح العلم أو التذوّق العلمي المتكرّر في فكر ابن نبي لا يُقصد به سوى التذوق البلاغي كما عرفته مسائل الإعجاز التي رسمها الجاحظ ومن جاء بعده، أما التذوّق الفطري هو الاستجابة الجبلية لمواطن الجمال وإدراك معاييرها وقواعدها فطريا ودون سنن سابقة، ولا يقصد بمصطلح العلم: الإعجاز العلمي الكوني بمفهومه الحديث.

(43). الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ - 2000م، ص60.

(44). هو العلامة محمد بن مصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي نسبا الجزائري موطنا، ينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، ولد بمينة قسنطينة 10 ربيع الثاني 1308هـ الموافق لـ04 ديسمبر 1889م، رجل العمل الإصلاحي في الجزائر ومؤسس جمعيات ودور للحديث والقرآن، نشر العلم الشرعي، بعيدا عن التعصب والخرافات، أصدر عدة جرائد تعنى بالإصلاح أهمها وأشهرها: البصائر، أسّس جمعية العلماء المسلمين سنة: 1931م، توفي رحمه الله 8 ربيع الأول 1359هـ، من مؤلفاته: تفسير "مجالس التذكير"، والعقائد الإسلامية، وغيرها، ينظر ترجمته في: معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص29.

(45). العقائد الإسلامية، مكتبة مرازقة، الجزائر، ط2، ص109-110.

(46). العقائد الإسلامية، ص110.

(47). مسألة تحديد وجوه الإعجاز عند العلماء قضية خلافية وفي آراء كثيرة ومتباينة، منهم من اقتصر على وجه واحد، ومنهم من زاد وجوها أخرى، ومنهم من عدّد وجوهه، ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص93.

(48). مجالس التذكير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ- 1995م، ص160.

(49). مجالس التذكير، ص398.

(50).المصدر نفسه، ص377.

Inimitable of The Quran at The Moroccan Ulemas
Malek Bennabi and Abdelhamid Ben Badis

Dr. Amara Miloud
Department of Islamic civilization
Institute of Islamic Sciences - Eloued University
miloud-amara@univ-eloued.dz

Abstract:

Most of scholars agree that the theory of scientific miracles and its appurtenances like : the rhetoric miracles study, the word of Allah interpreting and source of the Quran according to the faith scholar, is one of the most important issues that had been studied by the Muslim occidental school of Arabic language and Quranic studies .

It is obvious that the oriental Muslim scholars had preceded their brothers, the occidental scholars in this field , we can see their impacts in that study very clear , they have different researches treating these kinds of items.

Our intervention comes in accordance with the second theme of the conference .

Our study aims to show the concerns and care of occidental Islamic scholars by studying the Quranic miracles and extracting their choices, as well as the abstracts of the Quran and its rhetoric c miracles, which would add a new brick to the Quranic miracles. Thus linking the scholars and scholars in Qur'anic studies with the flags of the most famous Maghreb scholars , and adding it to the study of the miracle of the Quran.

Keywords:

Concern, Ulemas; Inimitable; The Moroccan; The Quran.